Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

الشيخ عبد السلام الأسمر وآثاره العلمية وموروثه الصوفي

أ. د. الطيب علي الشريف

أ. محمد مولود غماج*

المقدمة

في إطار التعريف بعلماء ليبيا وأقطابها سيتم تناول جوانب منوعة من حياة الشيخ عبد السلام الأسمر، وفق المحاور المعدة من اللجنة المكلفة بالإعداد للندوة التي ستقام حوله في نهاية هذا العام. وبما أن الشيخ الأسمر هو موضوع هذا البحث، وبعد استيفاء عدد من المصادر والمراجع، استقر الرأي على أن تكون دراسة هذه الجوانب المنوعة من حياته، تحت عنوان: (الشيخ عبد السلام الأسمر وآثاره العلمية وموروثه الصوفي)، وذلك في فصول ومباحث موزعة على النحو التالي:

الفصل الأول: نشأته وحياته
المبحث الأول: اسمه ونسبه
المبحث الثاني: مولده، وشهرته، نشأته
المبحث الثالث: نشاطه واجتماعياته

الفصل الثاني: مشايخه وتحصيله العلمي
المبحث الأول: مشايخه
المبحث الثاني: تحصيله العلمي
المبحث الثالث: أفكاره وارآه

---

* جامعة السابع من إبريل.

الفصل الثالث: تلاميذه وآثاره العلمية
المبحث الأول: تلاميذه
المبحث الثاني: تصدره مجالس العلم
المبحث الثالث: مؤلفاته ووصاياه

الفصل الرابع: تصوفه
المبحث الأول: طريقته الصوفية
المبحث الثاني: رحلاته
المبحث الثالث: آثاره الصوفية وتأسيسه للزاوية

وقدمنا لهذه الفصول بتمهيد يتناول العصر الذي عاش فيه الشيخ الأسمر، والمعطيات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تكوّن في إطارها، وتأثر بها، ووجّهته تلك الوجهة المميزة التي أثارت الآخرين، وحمّستهم لأخذ مواقف منه بين مادح وقادح.

جاء هذا التمهيد بعنوان: حَيَوَات عصر الأسمر، ويضم المباحث التالية:
المبحث الأول: الحياة الثقافية
البحث الثاني: الحياة الدينية
المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية
المبحث الرابع: الحياة السياسية

سار البحث وفق المنهج التاريخي التحليلي، مع الاهتمام بالجانب النقدي، وتحقيق المسائل التي تحتاج إلى تحقيق، وتفنيد ما يثبت البحث زيفه، أما مسالك البحث فقد سارت في الخطوات التالية:

1. الترجمة للأعلام البشرية والجغرافية، ومن لم نجد له ترجمة أوضحنا ذلك.
2. شرح المصطلحات والمفردات الغريبة.
3. تحقيق المسائلِ الخلافية.
4. التنبيه على ما يُظهِر التحقيق زيفه وضلاله.
5. التوسع في الشرحَ والتوضيح ما أمكن.
6. التوثيق الكامل إلى المصادر والمراجع، والنواقص تتم الإشارة إليها.
7. الضبط بالشكل لكل ما يحتاج إلى ضبط.

ووفق مخطط البحث هذا سيتم تناول مختلف الجوانب المعلنة أعلاه على النحو التالي:

تمهيد: حيوات عصر الأسمر

مدخل

إن الاعتناء بتراجم الرجال الأفذاذ، من أصحاب المكانة المرموقة عبر العصور، والتعريف بهم من سمات المجتمعات الناهضة، اعترافا منها بالذين برّزوا في ميادين العلم، وساهموا في رفعة مجتمعاتهم ونهضتها بوسائلهم التربوية، والمعرفية.

فكثير من هؤلاء الرجال تركوا فيضا علميا وتراثا أدبيا من خلال مراكزهم التعليمية، وزواياهم التربوية التي كانت مراكز إشعاع شكلت بواسطة مناشطها المنوعة عنصرا مهما في الحياة الثقافية منذ القرن السابع الهجري.

وبما أن موضوع هذا البحث هو حياة الشيخ عبد السلام الأسمر، فسنتناول باختصار جوانب من هذه الحيوات المنوعة التي عاش فيها وبينها على النحو التالي:

المبحث الأول: الحياة الثقافية

إن ليبيا كغيرها من الأقطار لم تخلُ من العلماء على مر العصور ممن كان لهم دور يذكر في مجال العلم والثقافة، فعلى سبيل المثال كانت الحياة الثقافية قبل عصر الأسمر زاخرة بالعلماء الأفذاذ كابن الأجدابي[1]، وعبد الرحمن المكي الطرابلسي[2]، ومحمد بن موسى بن معمر الهواري[3]، وغيرهم.

1- هو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الأجدابي، من رجال القرن الخامس الهجري، كان من أعلم أهل زمانه، ينظر: عبد اللطيف محمود البرغوثي، تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني، دار صادر، بيروت، لبنان، منشورات الجامعة الليبية، 1971م.: 314، ورحلة التجاني، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، لا: ط، لا: ت 262.

2- هو عبد الرحمن بن مكي بن عبد الرحمن الطرابلسي، ولد عام 570هـ له باب واسع في العلم، وانتهى إليه علوّ الإسناد بمصر إلى أن توفي بها عام 651هـ ينظر: الطاهر الزاوي، أعلام ليبيا، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ط:1، 1961م: 160، وتاريخ ليبيا الإسلامي: 489.

3- ولد بطرابلس، ليبيا عام 609 هـ، وبها قرأ، ثم رحل مع أخيه إلى المهدية بتونس فدرس فيها على أبي زكريا البرقي، وكان من الفقهاء المفوهين، تولى القضاء أيام المستنصر الحفصي في عديد البلدان الإفريقية، توفي عام 682هـ بتونس، وقبر هناك، ينظر: تاريخ ليبيا الإسلامي: 495، ورحلة التجاني: 274.

كما برز فيها العديد من الذين برعوا في علوم الشريعة والحقيقة[4]، كأبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا[5]، وعبد السلام بن عبد الغالب المصراتي[6]، وأحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري[7]، وأحمد المكني[8]، وسواهم.

وعبر ليبيا كثير من مشاهير العلم والثقافة في رحلات مختلفة، واستقر بعضهم فيها، فكان لهم تأثير يذكر في الحياة العامة بين الناس، مثل: أحمد زروق[9]، ومحمد بن عبد الرحمن الحطاب الرعيني الشهير بالحطاب الكبير[10]، وابنه محمد الشهير بالحطاب

4- هما العِلْمان اللذان يكوِّنان علم الدين الصحيح، فالشريعة تنفيذ أوامر الله، والحقيقة محبة الله –التصوف– يقول الإمام مالك ﷺ: من تشرّع ولم يتصوف فقد تفسّق، ومن تصوف ولم يتشرّع فقد تزندق، ومن تشرّع وتصوف فقد تحقق.، لمزيد معلومات ينظر: فقه العبادات، حسن كامل الملطاوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط: 2، 1968م، 1: 358 و 360.

5- هو أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا ولد 606 هـ من رجال القرن السابع الهجري عده التجاني من فضلاء طرابلس الغرب المشهورين بالعلم، أسس المدرسة المستنصرية بطرابلس الغرب، توفى 684 هـ لمزيد معلومات ينظر: تاريخ ليبيا الإسلامي: 494، ورحلة التجاني: 272.

6- أصله من مصراتة، ليبيا، اشتهر في الفقه وفروعه والفلسفة الإسلامية والتصوف، كان عالما بالقراءات السبع، حسن الترتيل، جيد التجويد، له تآليف في العقائد والفقه والتصوف، توفي بالقيروان بتونس سنة 646 هـ، ينظر: تاريخ ليبيا الإسلامي 502 – 503، وأعلام ليبيا: 173.

7- ولد بتاجوراء إحدى ضواحي طرابلس، ليبيا عام 635 هـ، وصفه التجاني بأنه أحد عدول طرابلس المصدرين بها، العارفين بفن التوثيق وعقد الشروط والحافظين للآداب، توفي عام 708هـ، ينظر: رحلة التجاني: 308، وتاريخ ليبيا الإسلامي: 502.

8- هو أحمد بن محمد المكني ولد بطرابلس عام 1042هـ، وبها نشأ، ترجع أصل أسرته إلى صفاقس بتونس، وقد رحلت إلى ليبيا أيام درغوت باشا، تميز المكني بفنون علمية كثيرة، وله مؤلفات عديدة توفي عام 1101هـ ينظر: أعلام ليبيا: 80.

9- هو أبو العباس أحمد بن محمد الزروق من مواليد برنس ببلاد المغرب عام 846 هـ، كان عالما فذا وصوفيا معتدلا يقدّم الشريعة على ما سواها، له عديد المؤلفات والشروح في الفقه والعقائد والتصوف وغيرها، توفي بمصراتة، ليبيا عام 899 هـ ينظر: عبد الحميد الهرامة، شيوخ الخروبي، آصالة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة خاصة بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط: 1، 1999م: 63، وأعلام ليبيا: 65.

10- ولد بطرابلس ليبيا عام 861 هـ وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم وتمهّر في ضبطه ورسمه، وتفقه على الشيخ محمد القابسي وأخيه والسنهوري والخطيب والسخاوي والزروق وغيرهم، وتتلمذ على يديه العديد من الطلبة والمريدين منهم الخروبي وغيره، توفي عام 945 هـ ودفن بزاويته بتاجوراء، ينظر: أعلام ليبيا: 309.

الصغير[11]، ومحمد بن علي السنوسي[12]، وظافر المدني[13]، ومن سار على دربهم.

وفي المقابل خرج منها رجال شكّلت علومهم طابعا ثقافيا واجتماعيا في المجتمعات التي رحلوا إليها، مثل: محمد بن أحمد الزليتني[14]، ومحمد بن علي الخروبي[15]، وعلي الأوجلي[16].

ومنهم من لمع صيته في ليبيا وخارجها سواء أكان من الوافدين كالشيخ أحمد زروق، ومحمد الحطاب المعروف بالحطاب الصغير، أم من المقيمين كالشيخ عبد السلام الأسمر، ومَن شابههم.

11- هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حسين بن محمد الحطاب، ولد سنة 902هـ ونقل عن نيل الابتهاج أنه مكي المولد، أخذ عن والده والتاجوري ومحمد الفيش ومحمد القلاني والبرهان القلقشندي وغيرهم، كان من العلماء المحدِّثين والمتقنين والمحققين للفقه وأصوله، بارعا في علم العربية، متبحرا في النحو والصرف، له تآليف كثيرة وشروح عديدة، توفي بطرابلس سنة 954هـ ودفن بداخل المدينة القديمة، ينظر: أعلام ليبيا: 311 وما بعدها.

12- من مواليد 1202هـ بمستغانم الجزائر، وصف بالعالم الجليل، أسس العديد من الزوايا لتحفيظ القرآن ونشر العلم في بقاع كثيرة، توفي في 1276هـ بمنطقة الجغبوب ببرقة الليبية، ينظر: أعلام ليبيا: 289، والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، أحمد النائب الأنصاري، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، لا: ت، لا: ط: 368.

13- هو محمد بن محمد بن حسن ظافر المدني، من أكابر المحققين الذين بذلوا جهدهم في نصح وإرشاد المسلمين، فكان كثير التجوال في الأقطار الإفريقية كصفاقس وسوسة والمنستير بتونس واستوطن طرابلس ثم رحل إلى تركيا وبقى فيها إلى أن مات وقبر هناك عام 1325هـ، ينظر: المنهل العذب: 353، وأعلام ليبيا: 291 وما بعدها.

14- قرأ على الشيخ الفندار وابن عرفة فصار عالما ورعا، يحرص على نفع الناس، عمل إماما وخطيبا بجامع الزيتونة إلى أن توفي عام 808 هـ، ينظر: أعلام ليبيا: 264، تاريخ ليبيا الإسلامي: 504.

15- هو من شيوخ الخروبي، وهو فقيه صوفي مفسر، ولد في ناحية قرقارش بطرابلس، عاش حياته الخصبة علميا في القرن العاشر، تتلمذ على الزيتوني والمديوني والزروق، وكان محققا واسع المعرفة له تآليف كثيرة، توفي بالجزائر عام 963 هـ ينظر: شيوخ الخروبي: 7، وتاريخ ليبيا الإسلامي: 510، وأعلام ليبيا: 286.

16- ورد أنه أحد أبناء ملوك أوجلة، بليبيا، وأحد كبرائها، قدم حلب بسوريا عام 1040هـ واجتمع مع علمائها وكان محل ثناء وشكر، توفى بالشام في القرن الحادي عشر للهجرة، ينظر: حولية المجتمع، نشر مجمع اللغة العربية، طرابلس، ليبيا، ط:1،ع: 4، 2006: 186، وأعلام ليبيا: 203.

المبحث الثاني: الحياة الدينية

شكل الدين الإسلامي منذ الفتح الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص لشمال إفريقية القاعدة الأساسية في كل ما يتعلق بحياة الناس ومعاملاتهم، والمذهب المالكي هو الأوسع انتشارا في الشمال الإفريقي، ثم المذهب الإباضي المنتشر على نطاق ضيق في بعض مناطق الجبل الغربي وزواره، وأدخل الأتراك العثمانيون المذهب الحنفي إلى الييبا بشكل رسمي عند سيطرتهم عليها[17].

ونظرا لما كان عليه بعض أفراد المجتمع من ثقافة روحية لتتبع آثار الزهاد والعباد -الصوفية- انتشرت الحركة الصوفية في عهد العثمانيين بشكل واسع، خصوصا عندما قربوا إليهم رجال الدين من علماء، ووعاظ، وشيوخ الطرق الصوفية، لما كانوا يتميزون به من تأثير يذكر في الأوساط الاجتماعية، إذ « شهدت الحركة الصوفية في ليبيا إبان العهد العثماني اتساعا ونفوذا في طول البلاد وعرضها، حتى أصبح لكل قرية تقريبا شيخها ووليها الصوفي، تتبرك به، وتقدم له النذور، وتخصه بالزيارة وإقامة الحفلات عند ضريحه »[18].

ولربما كان لهذا التقريب والتمييز لشيوخ الطرق الصوفية بالعهد العثماني انعكاس أسهم في شرخ اجتماعي نجم عنه صراع بين الفقهاء والمتصوفة.

المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية

منذ حلول العرب وانتشارهم بشمال إفريقية عموما، وفرض وجودهم في ليبيا خصوصا، اتسعت رقعة سيطرتهم بفضل لُحمتهم الاجتماعية واتباعهم أوامر الدين الإسلامي الذي قارب بينهم وبين السكان الأصليين للبلاد، فضلا عن تحالفهم مع بعض المغامرين[19].

17- إذ كان هذا المذهب هو السائد عند الأتراك، ينظر: تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، الدار العربية للكتاب،1988: 67.

18- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

19- مثل: قراقوش الذي تحالف مع ذباب من بني سليم، واستولى على كامل برقة وطرابلس الغرب وإقليم فزان الذي كان بحوزة بني الخطاب من هوارة، وابن غانية الذي جرّ قبيلة بني رياح وقبائل أخرى من بني هلال ضد الموحدين، وأبو عمارة الذي تحالف معه مرغم بن صابر رئيس قبيلة ذباب =

فشكلوا بناء اجتماعيا وثقافيا ووجدانيا متينا للمجتمع الليبي الذي هو امتداد للمجتمع العربي والإسلامي، وحافظ المجتمع بذلك البناء على قيمه وسلوكه وتمسكه بمبادئه، فلم ينصهر في أي من القوميات الأجنبية التي تعاقبت عليه، باستثناء بعض المظاهر الشكلية في الملبس والمطعم، وبعض الألفاظ الرومية والتركية والأوربية.

وفي ظل ذلك البناء اتسمت الحياة الاجتماعية التي عاش فيها وبينها الشيخ عبد السلام الأسمر بالترابط الوثيق بين أفراد الحي الواحد، والقبيلة الواحدة، والحرفة الواحدة، والطريقة الدينية أو الصوفية للمنتسبين إليها[20]، فكان التكافل الاجتماعي في أبهى صوره وأسمى معانيه، مدعاة لتجمّع الناس في مناسبات الأفراح بقصد مشاركة أصحابها وجدانيا، والأتراح للمواساة ومحاولة التخفيف عن المصاب، إلى جانب احتفالاتهم بالمناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف، وعيد الأضحى والفطر، وعاشوراء، وليالي شهر رمضان، وغيرها، واهتمامهم بحفلات الزواج وزيارة مقامات الأولياء والصالحين[21].

وكانت الأسرة تضم الأب والأبناء وزوجاتهم وأبناء الأبناء وكانوا غالبا ما يسكنون بيتا كبيرا، وإن اضطر أحدهم إلى الانفصال عن الأسرة تحت أي ظرف من الظروف يظل ارتباطه بها وثيقا، وبغيرها من بني عمومته وأهل قريته خصوصا في المناسبات.

ويحسن هنا إيراد أنماط منوعة من مظاهر الحياة اليومية التي عاشها المجتمع الليبي آنذاك، إذ مثَّلت تلك الحياة الشغل الشاغل لأفراد هذا المجتمع عبر العصور الماضية.

فالغالبية العظمى من السكان كانت تعيش حياة فقر وجهل[22]، فتوزعوا على المناطق الممطرة لصعوبة المعيشة بسبب قلة الموارد خصوصا عند انحجاب المطر، والكثيرون منهم كانوا يكتفون ذاتيا في معظم حاجياتهم إذ يتغذون على ما تنتجه حيواناتهم وأرضهم، وزاول بعضهم الصناعات التقليدية الخشبية كالمحراث والقصعة

=

التي كانت تسكن قابس وجبل نفوسة وأحواز طرابلس، لمزيد معلومات ينظر: إسماعيل كمالي، سكان طرابلس الغرب، تعريب وتعليق حسن الهادي بن يونس، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، ليبيا، 1997م: 33 وما بعدها.

20- ينظر: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني:31.

21- ينظر: المرجع السابق: 42.

22- ينظر: المرجع السابق: 53.

والجُرّارة وباب المسكن وأسقف البيوت ونحوها، واحترف البعض الآخر صناعة الخيام وبيوت الشَّعر والأغطية والمفارش وغيرها، ليقايض بها ما يحتاجه من غيره.

وكان منهم رحّل يجتمعون على تربية المواشي التي تتطلب تنقلهم من مكان إلى آخر بحثا عن المراعي لحيواناتهم، إلى جانب ما يقومون به من زراعات بعلية كالقمح والشعير في أراضٍ قسمت عرفيا فيما بينهم، وكثير ما تحدث نزاعات بين القبائل الرحل والمستقرة بسبب اجتياز حدود هذه الأراضي من غير إذن أصحابها.

وكانوا يجتمعون في أوقات فراغهم لتبادل الأخبار، والحكايات، والنوادر، في أفنية البيوت أو المساجد، وفي العرائش أو البراريك[23] بالأرياف والبوادي، وفي الدكاكين البسيطة المنتشرة في الأزقة وعلى الطرقات العامة، أو الأسواق الشعبية بالمدن والقرى، هذا إذا كان وقت الفراغ نهارا، أما ليلا فغالبا ما يجمعهم السمر في ساحات البيوت، أو الدكاكين، أو أماكن التجمعات الخاصة كالمرابيع، ونحوها.

مع انشغال كل منهم غالبا في شغله الخاص الذي يصطحبه معه، من فَتْل حبال، أو صناعات تقليدية بسيطة: كالمراوح[24]، والطواقي[25]، والفرامل[26]، ونحوها، وقد يقضي بعضهم وقته في زاويته الصوفية المنتسب إليها والتي كانت ظاهرة منتشرة على نطاق واسع عبر تلك العصور.

وتجتمع النسوة في البيوت لتبادل الأحاديث، وتقصي الأخبار مع غيرهن، وكثير ما تقوم كبيرات السن منهنَّ بمحاكاة الأطفال، وتوسيع مداركهم، وقتل أوقات فراغهم، وشَغْلهم عن الانحراف الذي ينجم عن الفراغ عادة، وذلك بتوجيههم نحو الخير والصلاح عن طريق القصص الخرافي القائم على الخيال الواسع، والتجربة العميقة في الحياة، ويتناول الخراف مختلف مظاهر الطبيعة، وحركاتها، وعلاقاتها ببعضها البعض، من حيوان وجماد ونبات[27].

23- البراريك، جمع براكة: محل البيع والشراء، ونحوه، المبني بالصفيح، أو القش.

24- المقصود: المراوح المصنوعة من سعف النخيل بطريقة فنية لجلب الهواء.

25- الطواقي، جمع طاقية: غطاء الرأس المصنوع محليا، ويسمى: (الكَبُّوش).

26- الفرامل جمع فرملة: الصديري المصنوع محليا، والمحلَّى ببعض الأشكال الهندسية الجميلة المتخذة من خيوط مخملية خاصة.

27- ينظر كتابنا،الزاوية ملامح ثقافية واجتماعية، نشر شخصي، مطبعة بحر العلوم، القاهرة، ط: 1، =

المبحث الرابع: الحياة السياسية

إن المتتبع للأوضاع السياسية في ليبيا منذ بداية الحكم العثماني الأول[28] يجد أن الفوضى كانت سائدة والأحوال تعج بالتقلبات، والأحداث، بسبب تصارع الأتراك على الحكم فيها، وكانت معظم فترات تاريخها إبّان ذاك الحكم تابعة لغيرها من العواصم القريبة منها مثل تونس، أو البعيدة عنها كالآستانة بتركيا[29]، فقد حكمها ما يقارب من (72) اثنين وسبعين واليا تركيا منذ عام 1551 وحتى 1911 م، وكانت الاضطرابات والمعارك كثيرا ما تنشب بين الطبقات الحاكمة ومؤيديها خصوصا عند تغيير الولاة، وينجم عنها موت العديد من الرجال عربا وأتراكا، إذ كان كل وال جديد يبدأ حكمه بالتخلص من مؤيدي سابقيه في الولاية بقتل أو سجن أو تشريد السياسيين والعسكريين ورجال الدين والعلماء، ناهيك عما كانت عليه الأساطيل الأوربية من زيارات استطلاعية متكررة على سواحلها لرصد أجوائها[30].

نتج عن ذلك فوضى عمت معظم قطاعات الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، فلجأت بعض العقول النابغة إلى الهجرة إلى الحواضر الإسلامية الأخرى[31].

ولم تعد التشكيلة الجغرافية السياسية في ليبيا مستقرة نوعا ما إلا مع ظهور العهد العثماني الثاني[32] حين نجح أحمد القرمانلي في إقامة دولة شبه مستقلة عن العثمانيين والتي كانت تضم الفضاء الليبي[33].

الفصل الأول: نشأته وحياته

المبحث الأول: اسمه ونسبه

بالرجوع إلى أهم مصدر اعتنى بمناقب الشيخ عبد السلام الأسمر، وتناول حياته،

=

2006: 168.

28- 958 - 1123هـ(1551 - 1711م).

29- ينظر: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني: 287.

30- ينظر: المرجع السابق:285.

31- ينظر: المرجع السابق: 287.

32- 1123-1251هـ (1711-1835م).

33- ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية، طرابلس، ليبيا، العدد الرابع، 2006م: 183.

وهو كتاب روضة الأزهار[34]، نجد أن اسم الشيخ هو:

عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن حميدة بن عمران (الشهير بالخليفة) ابن محيّا بن سليمان بن عمران بن أحمد بن خليفة (الملقب: فيتور) ابن الشيخ الحاج عبد الله (الشهير: نبيل)، ابن عبد العزيز بن عبد القادر بن عبد الرحيم بن عبد الله بن إدريس بن عبد الله بن محمد بن الحسن المثنى بن الحسن السِّبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

وورد في الروضة نفسها أن ابن مخلوف قد اطّلع على شجرة بها بيان نسب الشيخ الأسمر موقّعة من كثير من علماء طرابلس نصها: «وقد أطلعني أحد أحفاد مولانا عبد السلام على رسم شجرة بها بيان نسب الشيخ ﷺ، وبها ختم كثير من علماء طرابلس وغيرها، وأتى به على الوجه المذكور، غير أنه لما بلغ إلى سليمان ... قال: سليمان بن سالم بن خليفة بن نبيل بن عمران بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد القادر بن أحمد بن عبد لله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر إلى آخره، اهـ. تأمل»[35].

والملاحظ هنا أن الاختلاف في سلسلة النسب بين هذين المصدرين المهمين يعتريها بعض النقص والزيادة وتقديم وتأخير على النحو التالي:

أولا: ملاحظات عما ورد في سلسلة البرموني مقارنة بالسلسلة الواردة في الشجرة التي اطلع عليها بن مخلوف:

1. نقص ثلاثة أسماء بين سليمان وعمران، إذ ورد في الشجرة: هو سليمان بن سالم بن خليفة بن نبيل بن عمران.
2. نقص ثلاثة أسماء أيضا بين نبيل وعبد العزيز، إذ ورد في الشجرة: هو نبيل بن عمران بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز.
3. نقصان اسم بين إدريس وعبد الله، إذ ورد في الشجرة: هو إدريس بن إدريس بن عبد الله.

ثانيا: ملاحظات عما ورد بالشجرة مقارنة بما جاء عن البرموني:

1. زيادة اسم بين سليمان وخليفة، ففي الشجرة: سليمان بن سالم بن خليفة، ولا وجود

34- تأليف الشيخ كريم الدين البرموني، وقام بتنقيحه واختصاره محمد محمد مخلوف.

35- تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر، كريم الدين البرموني، نقحه واختصره محمد بن محمد بن عمر بن مخلوف، وسماه مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ عبد السلام بن سليم، ط: 2، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، 1966م: 74 وما بعدها.

لاسم سالم بعد سليمان في البرموني.

2. نقص اسمين عما ورد في البرموني بين سليمان وسالم، فالنص هو: سليمان بن عمران بن أحمد بن خليفة فيتور.
3. نقص اسم بين عبد القادر وأحمد، فعبارة البرموني: عبد القادر بن عبد الرحيم بن عبد الله، بينما في الشجرة: عبد القادر بن أحمد، ولعل أحمد هو نفسه عبد الرحيم، يؤيد ذلك ما ورد عن بعضهم في سلسلة نسب الأسمر أنه: عبد السلام بن ... أحمد الملقب بعبد الرحيم[36].
4. زيادة اسم بين عبد القادر وعبد الله، ففي عبارة الشجرة: هو عبد القادر بن أحمد بن عبد الله.

ولعل نص الشجرة هنا يتفق مع ما ورد عن المنهل العذب[37]، وأعلام ليبيا[38]، في جزء السلسلة (من سليمان إلى نبيل)، ففيهما أنه: سليمان بن سالم بن خليفة نبيل.

وهنا نجد اختلافا من نوع آخر في سلسلة نسب الشيخ الواردة عن أحد تلاميذه[39]، الذي قال: «هو عبد السلام بن سليم بن محمد بن حميدة بن عمران بن محيا بن سليمان بن سالم بن عمران بن أحمد بن خليفة بن عبد الله بن عمران بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد القادر بن أحمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب»[40].

ويورد النائب في منهله السلسلة نفسها على النحو التالي: عبد السلام سليم محمد سالم محمد احميدة عمران محيا سليمان سالم خليفة نبيل السعدي المغربي المخزومي القرشي. ويتفق الزاوي في أعلامه مع النائب في السلسلة بكاملها إلى حيث وقف بها بما ذلك السعيدي المغربي المخزومي القرشي.

36- ينظر: مجلة الثقافة العربية، مجلة شهرية تصدر عن مجلس تنمية الإبداع الثقافي بالجماهيرية، العدد 267، السنة 33، 2006، «عبد السلام الأسمر وتصوفه، من خلال كتاب النور النائر للعلامة سالم السنهوري»، محمد الوليد: 39.

37- ينظر: المنهل العذب: 207.

38- ينظر الطاهر الزاوي، أعلام ليبيا، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ط: 1، 1961م: 169.

39- هو الشيخ سالم بن محمد بن عز الدين بن محمد ناصر الدين السنهوري المصري المالكي، أبو النجاء، ولد عام 945 هـ. وتوفي عام 1015 هـ، ينظر: مجلة الثقافة العربية: 45.

40- المرجع السابق: 39.

ويمكن الخروج من هذه الموازنات بين روايات سلسلة نسب الشيخ بالآتي: أنه يوجد تقديم وتأخير بين روايتي البرموني وابن مخلوف في الشجرة الطرابلسية، فالأول يقدم عمران وأحمد على خليفة (فيتور) بن عبد الله (نبيل)، بينما ورد الاسمان في الشجرة متأخرين عن خليفة بن عبد الله.

وفي رواية البرموني أن سليمان هو بن عمران بن أحمد بن خليفة (فيتور)، بينما في الشجرة أنه ابن سالم بن خليفة (فيتور). وتختلف رواية السنهوري عنهما ففيها: أن سليمان هو بن سالم بن عمران بن أحمد بن خليفة (فيتور)، فهو هنا يخالف البرموني بزيادة سالم بين سليمان وعمران، كما يخالف الشجرة بزيادة عمران بن أحمد بين سالم و(خليفة فيتور). وتتفق رواية النائب مع الشجرة تماما، كما يتفق معها الزاوي الذي يبدو أنه ناقل عن النائب حرفيا.

وكل هذه الاختلافات بعد سليمان، وليس هذا فقط بل هناك اختلافات يسيرة أخرى قبله مثل: زيادة محمد بين سالم وحميدة في رواية النائب فقط، بينما لم ترد في روايتي البرموني والسنهوري. وانفرد السنهوري بإسقاط سالم بين محمد وحميدة.

وتنتهي سلسلة نسب الشيخ الأسمر بانتسابه إلى الدوحة النبوية الشريفة، وهنا يمكن الرد على النائب في منهله وكذلك الزاوي في أعلامه الذي تبنى ما ورد عن النائب من أن الأسمر «سعيدي مغربي مخزومي قرشي»[41]، بأنه ليس سعيديا إلا أن جده نبيل أثناء رحلة عودته إلى الحجاز من المغرب عاش فترة في قبيلة بني سعيد الهلالية فنسب إليهم من باب التحالف معهم، محتميا بهم من مخاطر الطريق وليس منهم أساسا، وكذلك فهو ليس مغربيا أصلا، بل أصوله واردة على المغرب من الحجاز أيام الفتن في الدولة العباسية، فهو من السلالة الإدريسية، وليس مخزوميا[42]، أما أنه قرشي فلا شك في ذلك.

وتجدر الملاحظة هنا أن هذه الاختلافات لا تضر بسلسلة نسب الشيخ بما فيها من تقديم وتأخير وزيادة ونقصان، لأن الفارق في السلسلة عدد من الشخصيات أشار

41- ولعل الشيخ هنا وقع في سهو، وإلا فهو في سلسلة نبيل ينص على أنه ليس سعيديا بقوله: «وليس نبيل من أولاد سعيد ... بل هو حليف لهم»، ينظر: أعلام ليبيا: 354.

42- ينظر: روضة الأزهار: 76.

إليها الشيخ الطيب المصراتي في قوله: بأن مثل هذا الاختلاف لا يُستبعد في التاريخ[43]، وأن نسب الشيخ إلى جده سليمان صحيح، وأورد بعض ما جاء من خلاف في سلسلة النسب بين البرموني والشجرة التي اطّلع عليها ابن مخلوف، ثم علق موضحا: « إذ هو سليمان بن سالم بن خليفة بن عمران بن أحمد بن خليفة (فيتور) »، وفيتور هو ابن نبيل، وتستمر السلسلة بعده إلى الحسن بن علي بن أبى طالب، وابن فاطمة الزهراء، بنت رسول الله ﷺ.

المبحث الثاني: مولده وشهرته ونشأته

مولده

ولد الشيخ عبد السلام الأسمر يوم الاثنين الموافق للثاني عشر من شهر ربيع الأول عام 880 هـ (1475م) بمدينة زليطن، من أبوين كريمين هما سليم المذكور، وسليمة الملقبة بعيادة الدرعية بنت الشيخ عبد الرحمن الدرعي بن عبد الواحد بن عبد القادر بن عبد العزيز وينتهي نسبه إلى العالم الصوفي الولي الصالح عبد السلام بن مشيش.

شهرته

كان يلقب بـ(الفيتوري)، وقد انتقل إليه من أحد أجداده[44]، الذين لُقبوا به إثر حادثة يعوزها السند التاريخي كما قال الطاهر الزاوي في أعلام ليبيا[45]، وشهر بـ(الأسمر) لمبيته الليالي سامرا في طاعة الله[46].

نشأته

نشأ بمسقط رأسه -زليطن- في بيت عز وعلم، وعاش يتيما إذ توفي والده وهو ابن سنتين وشهرين، فكفلته أمه، وتولى عمه أحمد بن محمد الفيتوري أمره والقيام

43- ينظر الطيب المصراتي، فتح العلي الأكبر في تاريخ حياة عبد السلام الأسمر، دار الكشاف، بيروت، القاهرة، بغداد، لا: ط، 1969م، 19.

44- وهو خليفة بن عبد الله -نبيل- بن عبد العزيز.

45- ينظر: أعلام ليبيا: 355.

46- ينظر: روضة الأزهار: 86.

بشئونه، فكان يحبه وينصحه ويألف إليه[47].

المبحث الثالث: لمحات من نشاطه واجتماعياته

نشاطه

توجه عبد السلام الأسمر إلى الكتّاب فحفظ القرآن الكريم، وأخذ مبادئ النحو والتوحيد والفقه والمنطق عن عمه[48] الذي قام بتوجيهه فيما بعد إلى بلدة مسلاته[49] ليتتلمذ على يد المربي الشيخ عبد الواحد الدوكالي[50]، فكان له ذلك حيث لازمه مدة سبع سنوات مجدا في خدمته، مستفيدا من علومه وخبرته، فقرأ عليه العلوم، وأخذ عنه التصوف[51].

ولما كان زمنه فترة صراع بين الفقهاء والمتصوفة أدرك أن هذا المأخذ لا يفيد بدون شريعة، فقرأ المختصر والرسالة ومقدمة الإمام الأشعري في علم التوحيد، وغير ذلك من العلوم، فصار فقيها متفننا محافظا على السنة[52].

تميز بفصاحة اللسان، وعذوبة المنطق، وكثرة الحفظ، إذ ورد أنه كان يحفظ جامع الأمهات لابن حاجب المالكي عن ظهر قلب، ويحفظ أيضا المعيار والمدخل، وغيرها[53].

اجتماعياته

وقد شهدت آثاره الاجتماعية على تواضعه وحيائه فكان يباسط رفقاءه

47- ينظر: روضة الأزهار: 91.

48- ينظر: المرجع السابق: 91.

49- مسلاتة: بلد كبير يقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو 125 ك.م.، ينظر: الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ط: 1، مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، 1968: 315.

50- من رجال القرن العاشر الهجري، من كبار العلماء، ورجال الأعيان، كان من أصحاب الزروق، دفين زعفرانة إحدى قرى مدينة مسلاتة، ليبيا، لم نعثر له على تاريخ ميلاد ولا وفاة، ينظر: فتح العلي الأكبر: 193، وملتقى التصوف: 588.

51- ينظر: روضة الأزهار: 92.

52- ينظر: المرجع السابق: 93، والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، أحمد النائب الأنصاري، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، لا: ت، لا: ط: 208.

53- ينظر: عبد السلام، آراؤه وأفكاره: 10.

ويمازحهم، إذا اختلى معهم، وكان يلبس الثياب البيض ويتعمم بعمامة بيضاء أو خضراء لا يرى منه غالبا إلا عيناه، يلبس النعل الطرابلسي الأصفر، والمداسة القيروانية، والمسَد الكامل الساتر لكعبيه، وكان كثير النهي عن لبس السواد[54].

كان برا بوالدته التي فقدت بصرها، إذ قدم عليها منذ أن فرغ من ملازمة شيخه الدوكالي فمكث معها إلى أن فارقت الحياة[55].

تميز الشيخ الأسمر بكثرة العبادة ودوام الذكر[56]، وكانت حياته مدرسة لتعاليم الدين الحنيف منذ طفولته إلى وفاته، بدءا من قراءة القرآن الكريم، وتحصيل علوم الدين، إلى تعليم جلسائه الفقه، والتفسير، والسيرة، والوعظ، وقد جاوز ذلك إلى التأليف وبعث رسائل النصح والإرشاد إلى أصحاب الحل والعقد في المشرق والمغرب[57].

الفصل الثاني: مشايخه وتحصيله العلمي

المبحث الأول: مشايخه

من خلال البحث والاطلاع يبدو أن الإشارات الأولى للتطلعات العلمية للأسمر وتشوفاته الدراسية بدأت بمنزله الذي نشأ فيه وترعرع، إذ اهتم به عمه، وكان يحبه وينفق عليه ويحثه على العلم وتحصيله، فقد جاء في مواهب الرحيم[58] أن أبا العباس أحمد بن محمد الفيتوري عم الشيخ عبد السلام الأسمر والقائم بشئونه كان أول مشايخه[59]، وفي صباه وشبابه انتقل إلى مسلاتة ليتتلمذ على الشيخ عبد الواحد الدكالي الذي تولى تعليمه العقلي والنقلي[60].

وجاء في خاتمة مواهب الرحيم ترجمة لبعض مشايخه منهم: عبد الواحد

54- ينظر: روضة الأزهار: 86.

55- المرجع السابق: 100.

56- أعلام ليبيا: 170.

57- ينظر: مجلة الثقافة العربية، مجلة شهرية نصدر عن مجلس تنمية الإبداع الثقافي، الجماهيرية، العدد: 267، أي النار 2006م: 38.

58- لابن مخلوف.

59- ينظر: روضة الأزهار: 65 و 91.

60- ينظر: المرجع السابق: 93.

الدكالي[61]، وأحمد زروق[62]، وفتح الله أبوراس[63] وأحمد بوتليس[64]، وأبوراوي الفحل[65]، وأحمد بن عروس[66]، وبيّن أن بعضهم بواسطة وبعضهم بدونها، أي أنه تتلمذ لبعضهم بواسطة غيرهم ممن أخذ عنهم التحصيل العلمي مباشرة ولما كان من معاصري الدكالي والزروق وأبوراس كان هؤلاء مشايخه مباشرة دون واسطة، وعُدَّ الآخرون مشايخ سند لطريقته الصوفية التي ارتضاها وكان يحث عليها[67].

ومما يؤيد ذلك أنه كان يثني على من تتلمذ عليهم بدون واسطة مثل الدوكالي، فقال فيه: « أستاذي وشيخي وقدوتي عبد الواحد الدوكالي ... »[68]، وفتح الله أبوراس، فكان يقول: « كان يحبني كثيرا ويقول يا ولدي، وأنا أقول له يا جَدِّي »[69].

وذكر الزاوي في أعلامه أن الأسمر تتلمذ للشيخ عبد الرحمن المسلاتي[70]، والأستاذ أحمد زروق، دون أن يذكر مصدره، والمرجّح أنه اعتمد على ما ذكره النائب الأنصاري في منهله الذي لم يبين هو الآخر مصدره للمعلومة[71].

وبيَّن الطيب المصراتي في فتح العلي الأكبر أن الشيخ أحمد زروق لم يكن من

61- من رجال القرن العاشر، تميز بالورع، وله معرفة بعلم النحو، والمعقول،والمنقول، والفقه، والحديث، والتصوف، دفين قرية زعفرانة بمسلاتة، ليبيا، ينظر: السابق: 239.

62- كان من أصحاب الدوكالي بل من أخص أحبابه، عن السابق: 239.

63- أحد شيوخ الدوكالي، من رجال القرن العاشر، ارتحل من تونس إلى السودان، وأسهم في نشر مبادئ الإسلام واللغة العربية وكان له تلاميذ ومريدون في ذلك القرن، ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية، طرابلس، ليبيا، العدد 4، ط: 1، 2006م، 159، وروضة الأزهار: 240، وفتح العلي الأكبر: 28.

64- كان من الصلحاء المتميزين بالعلم والأدب، رحل من بلده القيروان بتونس إلى بني وليد بليبيا ومكث فيها سبع سنين ثم عاد إلى بلده واستقر بها إلى أن مات وقبر بالجامع الكبير، لم نعثر له على تاريخ ميلاد ولا وفاة، ينظر: الطيب المصراتي، فتح العلي الأكبر في تاريخ حياة عبد السلام الأسمر، دار الكشاف، بيروت، القاهرة، بغداد، لا: ط، 1969م، 202، 201.

65- دفين مدينة سوسة بتونس، لم نعثر له على تاريخ ميلاد ولا وفاة، له ترجمة في فتح العلي الأكبر: 202.

66- إمام الطريقة العروسية وإليه نسبت، ينظر: السابق: 206.

67- ينظر: روضة الأزهار: 65.

68- المرجع السابق: 193.

69- المرجع السابق: 240.

70- لم نعثر له على ترجمة.

71- ينظر: أعلام ليبيا: 169، والمنهل العذب: 208.

مشايخ الأسمر ولكنه كان من أعز أصدقائه وأحبابه وزملائه في الدراسة والحضور على الشيخ الدوكالي[72].

ونظرا لقلة المراجع في هذا المبحث نرى أنه من الصعب على الباحث حصر كل أساتذة الأسمر من أهل العلم، وقد يتيه بين معلومات ينقصها السند التاريخي، والرواية القطعية.

وحيث إن الأسمر عاش في عصر برز فيه العديد من مشاهير العلم والثقافة، مثل: علي بن عبد الحميد العوسجي[73]، ومحمد الرُّعَيْني الشهير بالحطاب الكبير، والخروبي[74]، وأحمد زروق[75]، وسالم الحامدي[76]، وسعيد التطاوني[77]، وعبدالله العبادي[78] وغيرهم[79].

ولمَّا كان العلم يؤخذ ويُتلقّى عن أهله بالجلوس والتحلُّق حولهم، والاقتداء بهم، والعمل بمناهجهم، فيمكن القول بأنه من المؤكد أن الشيخ الأسمر قد اجتمع ببعضهم، واستمع إليهم، وتحدث معهم، ومن ثم استفاد منهم، فيكونون بذلك مشايخ له، وأكثر ما كانت فرص الاجتماع والتحلُّق تُنشأ في المساجد والبيوت[80] والزوايا، وتتم في العديد

72- ينظر: فتح العلي الأكبر: 187.

73- ترجم له الزاوي في أعلامه بقوله: الشيخ الوقور العالم السالك مؤدب الصبيان شهر بأبي حميرة وعرف بأمير الصالحين،أخذ عنه ابنه عبد الحميد اثنى عشر علما، توفي عام 925 هـ ودفن بجامعه بالحرشاء، ينظر: روضة الأزهار: 257، وأعلام ليبيا: 208.

74- ينظر: شيوخ الخروبي: 10.

75- ينظر: فتح العليم: 197.

76- لم نعثر له على ترجمة.

77- لم نعثر له على ترجمة.

78- لم نعثر له على ترجمة.

79- لمزيد مغلومات ينظر: روضة الأزهار: 93 وما بعدها.

80- ظلت المساجد منذ نشأتها أماكن للعبادة ومواضع لتلقي العلوم الإسلامية من تفسير، وحديث، وسيرة، ولغة، ونحو، وصرف، وتصوف، وفقه، وبلاغة ... وغيرها، عبر مراحل التاريخ الإسلامي، يقول ابن عاشور وهو يتحدث عن مواضع التعليم قديماً: «أما العلم والسنة فيُدّرس في البيوت والمساجد»، ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، المصرف التونسي للطباعة، تونس، لا: ط، 1967م: 56.

من المناسبات الاجتماعية كالمآتم والمصائب والأفراح، وحيث ما اجتمع أهل العلم والدراية بمن يحتاج إلى ذلك من المريدين.

المبحث الثاني: تحصيله العلمي

توجه الأسمر -بناء على توجيه عمه- إلى حفظ القرآن في الكتاب، فحفظه وهو ابن سبع سنين، وصار من الماهرين فيه فكان يقرؤه على أحسن هيئة بالضبط والتجويد، وكان مع قوة حفظه لا يقرؤه إلا من المصحف(81).

وأخذ عن عمه(82) مبادئ الفقه والنحو والمنطق والتوحيد وغير ذلك(83)، وقرأ على الشيخ عبد الواحد الدوكالي المختصَر لخليل، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، والحِكَم لابن عطاء الله، ودرس عليه علم التوحيد، وعلم التصوف، وغيرها من العلوم، فصار فقيها متفننا(84)، وعَلَما متميزا، شهد له فحول العلماء في عصره بالاستقامة، وبث الوعي الديني في الأوساط الاجتماعية، ناهيك عن الحفظ والإتقان للمطولات الفقهية(85).

المبحث الثالث: أفكاره وآراءه

إن أفضل ما يقوّم به الإنسان هي كلماته المنطوقة، أو المسطورة في أي موضوع من المواضيع، ولمعرفة قدر الأسمر ومكانته العلمية والأدبية والأخلاقية، وجوانبه الروحية، يمكن تتبع بعض الجمل والمواضيع المختلفة التي وردت في نصائحه وتوجيهاته وإرشاداته ومقارنتها بميزان الشريعة الإسلامية، فهي معبرة عن شخصيته، ومدلِّلة على أفكاره وآرائه، ومبينة لتقواه وخشيته لربه.

وإذا وقفنا على آرائه وتحليلاته لبعض القضايا المثيرة، وتتبعنا رسالته التي كتبها إلى أتباعه بمنطقة تنمبكتو بمالي بإفريقية نجدها تصور أفكاره وآراءه في ضوء الشريعة الإسلامية، وتوضح ما كان يعطيه ويبثه من علم وإرشاد أثناء محاضراته لطلبته ومريديه.

81- ينظر: روضة الأزهار: 91.

82- هو أحمد بن محمد الفيتوري الذي عُدَّ أول مشايخه، له باب في الفهم والحفظ وإتقان العربية وغيرها من العلوم، وكان ماهرا في الشعر، ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

83- ينظر: روضة الأزهار: 91، وأعلام ليبيا: 169.

84- ينظر: المرجع السابق: 93.

85- ينظر: مجلة الثقافة العربية، مصدر سابق: 42 - 44.

تكلم الأسمر في مواضيع كثيرة، منها على سبيل المثال:

الوَجْد[86]

إذ قال فيه: «لا تزالون تَذْكُرُون[87] حتى تظهر فيها الخمرة، وهي السكر، والسكر هو الغَيْبَة عما سوى الله تعالى»[88]، وقد صور القرآن الكريم حالة الوجد، وبيَّن ما يترتب عليها من سلوكيات في عديد الآيات، منها قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: 31]، وقوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 84]، وقوله: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: 18].

وهنا نجد أن الآية الأولى صورت حالة الإعجاب التي سيطرت على النسوة فحصلت لهن الغيْبَة لمَا رأينه من جمال يوسف عليه السلام، وبينت حالة الوجد لهن، ومدى سيطرتها عليهن، وأوضحت آثارها عليهن، وما آل إليه أمرهن من قطع أيديهن دون شعور[89].

وصورت الآية الثانية مدى محبة يعقوب لابنه يوسف (عليهما السلام) وغيْبَته فيها حتى أنسته السؤال على من بقي معه من إخوته[90]. وصورت الآية الثالثة ما يحصل للنفس البشرية من رعب وخوف إذا اطّلعت على أصحاب الكهف، وبيّنت الآية ما يترتب على ذلك من آثار ينجم عنها هروب وفرار[91]، أي حالة غيبة.

وقد استنبط العلماء أن الوجْد لا حرج فيه إذا طرأ على الإنسان بسببٍ مشروعٍ كالذكر وتلاوة القرآن، وفي مقارنة رأي الأسمر مع غيره من أهل العلم في الموضوع نرى التوافق والوضوح، فقد نقل عن ابن تيمية قوله: «ما يَرِد على القلوب مما يسمونه السّكر والفناء ونحو ذلك من الأمور التي تغيِّب العقل بغير اختيار صاحبها فإنه إذا لم

86- الوجد: صفة تحصل للنفس نتيجة لفعل الإنسان وعمله، لمزيد معلومات عنه ينظر: محمد عزالدين الغرياني، عبد السلام الأسمر آراؤه وأفكاره في ميزان الشريعة، الشركة العامة للورق والطباعة، سبها، ليبيا، لا: ت، لا: ط: 19 وما بعدها.

87- المقصود: ذكر الله.

88- ينظر: روضة الأزهار: 200.

89- ينظر: عبد السلام الأسمر آراؤه وأفكاره: 19.

90- ينظر: المرجع السابق: 19.

91- ينظر: المرجع السابق: الصفحة نفسها.

يكن السبب محظورا لم يكن السكران مذموما؛ بل معذورا، لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم كالمغمي عليه والمجنون ونحوهما »[92]، ونقل عن الحِكَم العطائية: « متى وردت الواردات الإلهية عليك هدَّمت العوائد عليك الوارد يأتي من حضرة قهَّار، لأجل ذلك لا يصادفه شيء إلا دمغه »[93]، ونقل عن الزروق قوله: « الواردات الإلهية هي ما يتجلى للقلوب من المعارف التي تبرز عندها الحقائق، فإذا أُوردتْ هذه الواردات على القلب لم يبق فيه متسع لغيرها فتأخذ بمجامعه ... وتستوي في كُليَّة العبد فينفث بها طوعا أو كرها لخلوه عما سواه فإذا دخل الرب القلب خرب مما سواه، فلا يتأتى له جري مع المعتاد ولا تصرف بالأسباب »[94].

ضرب الدُّف

وتكلم الأسمر في ضرب الدفوف فقال: « فلا تضربوها إلا بعد أن تظهر الخمرة ولا تضربوها إلا وأنتم طاهرون ... ولا تمكنوها للنساء ولا للصغار فإن ذلك يضركم ويضرهم وإيّاكم ثم إيّاكم ثم إياكم أن تضربوا البنادير لأجل طلب الدنيا فإن ذلك يضركم مع الله مضرة شديدة ولا أرضى ذلك »[95].

وإذا وقفنا على ما تكلم به حول الدف نلاحظ أنه قيم المتواجد في حالة استحواذ للنشوة وغياب عن الموجودات المحيطة -فهو بذلك غافل عما يحيط به- ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: 55]، والشريعة جاءت بتذكير الغافل وتنبيهه حتى في العبادة، كالتسبيح في الصلاة للإمام الساهي بالنسبة للرجال، والتصفيق بالنسبة للنساء في غير مذهب الإمام مالك[96]، وللخروج من ذلك رأى الأسمر أنه لا بد من استفراغ الحالة الوجدانية بتعبيرات حركية وقولية، كضرب الدُّف، الذي لا تنكره السنُّة النبوية، فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها: « أن أبوبكر الصديق دخل عليها يوم عيد فوجد عندها جاريتين من الأنصار تغنيان ولسيتا بمغنيتين، فنهرهما أبوبكر ﷺ، فقال ﷺ: دعهما

92- عبد السلام الأسمر آراؤه وأفكاره: 20.
93- المرجع السابق.
94- المرجع السابق: الصفحة نفسها.
95- روضة الأزهار: 199.
96- ينظر: عبد السلام الأسمر: 26.

فإنهما في يوم عيد»[97].

ونقل في الصحيح من حديث الربيع بنت معوّذ: «جاء النبي ﷺ يدخل حين بنى عليّ ... فجعلت جويريات يضربن بالدف، ويندبن من قُتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يَعْلم ما في غد، فقال: دعي هذه، وقولي بالذي كنت تقولين»[98].

وفي رواية قال ﷺ: «هل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني؟»[99]، وورد في رواية أخرى: «وفيه جاريتان تلعبان بدف»[100].

وجاء أن من الموافقات العجيبة في هذا المقام أن الحديث الشريف السابق فيه جاريتان -وهما من دون سن البلوغ، وهما رمز الضعف- تضربان بالدف في حالة السرور بحضور أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع إقرار المربي الأكبر رسول الله ﷺ بذلك[101].

ومن المعلوم أن الأحكام الشرعية تؤخذ من قوله ﷺ وفعله وتقريره، فلما أقر الضرب بالدف ولم ينكِر على مستخدميه تبين جواز ذلك[102].

وقد حذر الأسمر من التصنع في الأفعال والحركات أثناء الذكر، فقال: «خذوا حذركم من الحركة النفسانية في الحضرة[103]... فإن النفس لها طرب شديد عند اعتدال الأصوات ... فردوا قلوبكم للذي خلق الأصوات سبحانه وتعالى، وخذوا حذركم من أن يغضب أحد على أحد»[104]، وفي هذا تحذير من التصنع في الاهتزاز والتمايل المزاجي أثناء الذكر، وفيه توجيه لمريديه بأن يتحققوا بصفاتهم ويكونوا مع الله في كل

97- وجاء في بعض المصادر أن هناك فقهاء توسعوا في لفظة (عيد) حتى أدخلوا فيها الأعراس، واعتبر بعض فقهاء الصوفية أن اللفظة أشمل من ذلك فأدخلوا فيها السرور بنعم الله تعالى، ينظر: عبد السلام الأسمر آراءه وأفكاره: 21.

98- ينظر: الصادق الغرياني، أساسيات الثقافة الإسلامية، 1995م: 338 وما بعدها.

99- ينظر: أساسيات الثقافة الإسلامية: 339.

100- ينظر: عبد السلام الأسمر: 22.

101- ينظر: المرجع السابق: 23.

102- ينظر: عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، حلب، سوريا، ط: 2، 1961م: 188.

103- يقصد هنا: عدم التصنع في الحركات كالاهتزاز والتمايل.

104- روضة الأزهار: 199.

الأحوال، مستشعرين نعم الله تعالى عليهم. هنا وقفنا

ولـه آراؤه في العديد من القضايا مثل: رأيه في الأموات، وختم البغدادي، والبدع، والاجتماع للذكر، وزيارة القبور وغيرها[105]، ومن الواضح في هذا المبحث أن الأسمر كانت آراؤه وأفكاره، متأصلة من الشريعة الإسلامية، ومنبثقة من السنة النبوية، ومتفقة مع غيره من الفقهاء المسلمين.

الفصل الثالث: تلاميذه وآثاره العلمية

المبحث الأول: تلاميذه

ليس من السهل حصر تلاميذ الأسمر، فقد صاحبه وأخذ عنه جم غفير ممن اشتهروا بالعلم، والأدب، والمعرفة، وتميزوا بالصلاح، فكانوا أعلاما في الميادين الثقافية، والاجتماعية، والعلمية، ينقل عنهم، ويقتدى بهم، من مثل:

- سالم السنهوري[106] الذي نال ثناء العلماء واحترامهم فقيل فيه: « كان أجل أهل عصره من غير مدافع وهو مفتي المالكية ورئيسهم وإليه الرحلة من الآفاق »، له حاشية على مختصر خليل، ورسالة في ليلة النصف من شعبان، والنور النائر وغيره[107].
- عمر بن جحا[108]، حفظ القران الكريم والحكم العطائية عن الأسمر، ثم قرأ عليه النحو والفقه والتوحيد والتصوف، اشتهر بالعلم والزهد، وتولى خلافة الأسمر في الطريقة إلى أن توجه إلى تونس فأقام بالمنستير حتى توفي وقبر بالقرب من قرية الداموس[109].

105- لمزيد معلومات عن هذا الموضوع ينظر: كتاب عبد السلام الأسمر آراؤه وأفكاره.

106- هو سالم بن محمد السنهوري المصري، بدأت علاقته بالأسمر بالجدل والإنكار، إذ سمع عنه وعن أحواله من الشيخ عبد الرحمن المكي الذي زار مصر مرارا والتقى بعلمائها وأخبرهم عن شيخه الأسمر وأحواله الصوفية فلاقت من بعضهم قبولا ومن آخرين إنكارا، إلى أن وقف عليه السنهوري وعرف حقيقته فلازمه وأخذ عنه التصوف، وأثنى عليه بقوله: « كان رحمه الله من أجل المشايخ وله شأن عظيم في علم الحقيقة والطريقة »، ينظر: روضة الأزهار: 96 وما بعده.

107- ينظر: مجلة الثقافة العربية: 44، وروضة الأزهار: 246.

108- جاء في ترجمة له: أنه عمر بن محمد بن حمودة الطرابلسي مولدا ودارا، المخزومي نسبا، المعروف بابن جحا، ولد عام 902هـ ومات عام 999هـ ينظر: المرجع السابق: 248.

109- ينظر: روضة الأزهار: 248.

- محمـد بـن عبد النبي الجبالي كان من أهل العلم والمعرفة، لازم الشيخ الأسمر في رحلته إلى الحج عام 957هـ وخدمه مدة بقائه بمكة[110].
- صـالح بـن مـبارك الغيثـي، ورد أنه أخذ العلوم عن والده ثم ذهب إلى مصر فتتلمذ على أكابر علماء الأزهر ثم رجع إلى طرابلس فأخذ عن الأسمر[111].
- خلـيفة بـن عـبدالله الشائيبي كان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر فعالا للخير، قيل فيه: ربى وأجاد ونصح وأفاد[112].
- عـبد الحمـيد بن عبدالله القمودي المعروف بضي الهلال كان من أرباب العلم وأهل الـصلاح، حفـظ القرآن الكريم وأخذ العلوم عن أكابر علماء تونس والمغرب، كانت لـه رحلـة للحـج عـام 956هـ اجـتمع خلالها ببعض العلماء من أمثال ناصر القاني وأمثاله ثم قفل بعدها إلى الشام ورجع إلى طرابلس فالتحق بالشيخ الأسمر[113].
- عـبد الـرحمن بـن علـي المكـي اشـتهر اسمـه بمكـة المكرمة، إذ كان فقيها محدثا وعالمـا مفتـيا، تعلـم علـى الناصـر اللقانـي وأضـرابه، واجـتمع بالأسمـر وأخذ عنه التصوف كانت له عديد التصانيف حول الأسمر منها: البحر الكبير[114].
- محفوظ بن عباس المليلي حفظ عليه القرآن وله معرفة بسائر العلوم، كانت له رحلة إلى الحج رجع بعدها ليجتمع بالأسمر عام 953هـ[115].
- سـالم بـن طاهـر الأنـصاري، قـرأ على شمس اللقاني وأخيه الناصر ثم تتلمذ على الأسمـر بعد عودته من الحج عام 910هـ فوصف بالفقيه العالم، مملوء الجراب من كـل العلـوم والآداب وكـان يقـري علومه، أوصى الأسمر رحمه الله قبل وفاته بأن لا يغسله ولا يصلي عليه إلا صاحب الترجمة[116].
- عمـر بن عبد الرحمن القريوي حفظ القرآن الكريم، اشتغل بطلب العلم فرحل إلى تـونس فقرأ النحو وغيره، ثم ذهب إلى المشرق وتعلم على اللقانيان وأضرابهما من

110- توفي عام 998هـ ينظر: روضة الأزهار: 248.

111- توفي عام 989هـ وقبر بتانرفت إحدى قرى الجبل الغربي، ليبيا، ينظر: روضة الأزهار: 249.

112- ولد 904هـ وتوفي 987هـ وقبر بككلة إحدى قرى الجبل الغربي، ينظر المرجع السابق:250.

113- من مواليد مدينة الزاوية الغربية عام 905هـ، وتوفي بها عام 991هـ ينظر: المرجع السابق: 250، وعن بعض الناس أن له مؤلفات عدة وتصانيف لا زالت مغمورة في المتاحف الأجنبية.

114- توفي عام 998هـ ودفن بالبقيع، ينظر: روضة الأزهار: 251.

115- توفي عام 989هـ وقبر ببلدة الطوبية شرق الزاوية الغربية، ينظر: المرجع السابق: 251 وما بعدها.

116- توفي 999هـ ودفن بزليتن، ينظر: المرجع السابق: 252، 99.

أرباب العلوم، ثم قفل إلى طرابلس ليلتقي بالأسمر ويأخذ عنه التصوف[117].

- محمد بن علي السملقصي البرمكي كان من تلاميذ الأسمر فعاشره طويلا، وكان له باب في الفهم والإتقان إذ حفظ الرسالة، ومختصر خليل، وعقائد السنوسي، وحكم ابن عطاء الله، والبخاري، ومسلم، قيل فيه: وله في كل علم طريق[118].
- محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني[119] الشهير بالحطاب الصغير، تتلمذ على أكابر علماء عصره، مثل والده وأحمد بن عبد الغفار ومحمد بن عراق، عبد القادر النويري، وأحمد بن أبي القاسم النويري، والبرهان القلقشندي وغيرهم، وكان من أجل أصحاب الأسمر، تميز بكثرة فنون العلم والمعرفة، فكان إماما عالما بالتفسير، ومحققا بارعا في الفقه وأصوله ومسائله، له تأليف وشروح عديدة تدل على سعة مدركه وقوة حفظه وجودة نظره، من مثل: شرحه على المختصر، وقرة العين في الأصول لإمام الحرمين، وتحرير الكلام في مسائل الالتزام، وبداية السالك المحتاج في بيان فعل المعتمر والحاج، وغيرها كثير لا يسع المجال لحصرها[120].

المبحث الثاني: آثاره الاجتماعية والثقافية

اتسعت آثار الأسمر العلمية فشملت شتى ميادين الحياة، بسبب تميزها بالبساطة في الأسلوب، وفصاحتها في الكلام، وخلوها من التكلف والتعقيد، وشمول محتوياتها، لاقتباس مواضيعها من القرآن، والسنة، وأقوال الحكماء.

ففي الميدان الاجتماعي نلاحظ أن آثاره انصبغ بها كثير من الناس، فكان للعامة منهم نصيب في شيوع كلامه وترديد أشعاره، وتغلغلت شخصيته في النفوس فتأثر بها العامة، وارتبطت عند أكثرهم بمفهوم اليمين فإذا أراد إثبات صدقه بما لا يدع مجالا للشك حلف به،، يقول محمد الوليد: « حتى صار اسمها (شخصية الأسمر) يمينا من

117- ولد عام 906هـ وتوفي عام 999هـ وقبر بالصابرية إحدى قرى الزاوية الغربية، ينظر: السابق: 252.

118- ولد عام 907هـ وتوفي عام 988هـ ودفن بجامعه بلواته، طرابلس، ليبيا،.عن السابق: 252.

119- ورد عن البرموني أنه من مواليد 904 هـ، وتوفي عام 954 هـ بمكة ودفن بها، بينما ذكر الزاوي في هامش أعلامه نقلا عن نيل الابتهاج أنه من مواليد مكة عام 902 هـ، وأنه توفي عام 954 هـ ودفن بداخل مدينة طرابلس وقد نقله عن المنهل العذب لأحمد النائب، ينظر: روضة الأزهار: 255، وأعلام ليبيا: 311 وما بعدها.

120- ينظر: روضة الأزهار: 255، وأعلام ليبيا: 311 وما بعدها.

الأيمان ».[121].

وفي الميدان الثقافي نرى أن كتاباته، وإرشاداته، طبعت بالفكر الديني، وامتزجت بروحانيات الإسلام فكانت بعيدة عن المغالاة والتطرف، كما تميّز نثره الأدبي بالسلاسة والرصانة، حتى إنه يمكن القول بأنه لا يوجد مثال يدانيه في التعبير الصوفي الرفيع[122]، وأيضا تميز شعره العامي بالسهولة والبعد عن الغرابة والتكلف قصدا منه لتبيين وتوضيح ما كان مبهما من أفكاره، وغامضا من آرائه، عن العامة من الناس.

كما كان الأسمر أنموذجا للتفاني في خدمة العلم بزاويته، وأينما حط رحله، فقد تصدر مجالسه بدروسه ومحاضراته في كثير من فنونه، وكان دأبه اليومي، فقد ورد عنه أنه كان يجلس لمحاضرته الأولى في علم التوحيد من فترة الضحى إلى صلاة الظهر[123]، ومحاضرته الثانية في علم الفقه وتبتدئ من الظهر إلى العصر، وكان جزؤها الأول في رسالة أبي زيد القيرواني، والجزء الثاني في مختصر خليل، والمحاضرة الثالثة في علم التربية والسلوك من الحكم العطائية وتبتدئ من العصر إلى المغرب، وكانت المحاضرة الرابعة في علم النحو والمعقول وتبتدئ من المغرب إلى العشاء[124].

وفي الميدان الروحي نجد أن تلك الآثار اتسمت بأسلوب تربوي متميز في وعظه، وإرشاده، وتوجيهه، فكانت في يسر وسهولة، باتباع اللهجة الميسورة، والألفاظ المتداولة، التي لا يمل منها السامع والقاري، فجذبت إليه النفوس المتعطشة، والقلوب الطالبة لليقين، وإن هذا الاتساع العلمي، والشمول الثقافي للأسمر لهو برهان ساطع على أثره في ميادين الحياة، فقد نُقل عن أحد تلاميذه: أن أتباعه كانوا يأتونه جماعات جماعات، إذ قَصَده من مكة مئتان وخمسون من حملة القرآن الكريم، وذهب في رفقتهم إليه عند سماعهم به من الإسكندرية بمصر مئة أخرى، وكلما مرّ الركب على قرية تبعهم أناس إليه حتى وصلوا إلى زليطن مقر سكنى الشيخ وهم ألف رجل، وبعد ثلاثة أعوام وصل إليه من الشام وبغداد ومكة والمدينة ومصر خمسة آلاف، ومن

121- مجلة الثقافة العربية:37.

122- ينظر: عبد السلام آراؤه وأفكاره:11.

123- ينظر: المرجع السابق: 10.

124- ينظر: المرجع السابق: 10 وما بعدها.

المغرب تسعمائة جميعهم أخذوا عنه العلوم والمعارف[125].

المبحث الثالث: مؤلفاته وما ألف عنه

مؤلفاته

إن المقدرة البيانية، والمكانة العلمية للأسمر، تتبين من مؤلفاته العديدة، وتتضح من خلال الكَتَبَة الذين كانوا يلقّفون كلامه، فيكتبون نثره ومقطّعاته الشعرية، يقول البرموني: إن له أربعين كاتبا مخصصين لتدوين كلامه، منهم سبعة لا يفارقونه[126]، موضحا أيضا الطريقة التي كان يتبعها الكَتَبة عند تدوين نصائحه، إذ يقول: « إن الشيخ الأسمر يملي عليّ كلمة بعد كلمة، وفي بعض الأوقات يسكت يسيرا ثم يملي عليّ فنكتبها من غير زيادة ولا نقصان، إلا في بعض الكلام نصلّح لفظه مع حصول مقصود الشيخ في المعنى وذلك بعد استئذانه فيأذن »[127].

ولا شك أن في كثرة عدد الكتبة على النحو السابق دلالة واضحة على تعدد مؤلفاته حتى إنه يصعب حصرها[128]، من مثل:

1. كتاب الأنوار الزَّكيَّة: وهو رسالة صغيرة بيَّن فيها الأسمر سلسلة سنده في الطريقة، وبعض النعم التي أنعم الله بها عليه، وبها أدعية كان يدعو بها.
2. الوصية الكبرى: وهي مطبوعة ومتداولة نسبيا، وتشتمل على توجيهات، وإرشادات عظيمة، حَرِيَّة بأن تُدرَّس للطلاب لِمَا حوته من تعاليم، ومواعظ، وأحكام.
3. الوصية الصغرى: وهي على نمط الوصية الكبرى.
4. وصية موجهة لأتباعه بتمبكتو بمالي.
5. نصيحة لأتباعه بتونس.
6. نصيحة لأحد طلبته[129].
7. نصيحة لتلاميذه بغريان.
8. نصيحة لمريده سعيد بن عبد الحميد الغدامسي.

125- ينظر: مجلة الثقافة العربية: 39.

126- ينظر: روضة الأزهار: 177.

127- المرجع السابق: 210.

128- ينظر المرجع السابق: 177، وفتح العلي الأكبر: 167 وما بعدها.

129- وهو مريده: راشد بن يحي المحجوبي.

9. نصيحة لمريده عبد الرحمن بن عبد المؤمن الفزاني.
10. نصيحة لمريده محمد بن عبد الكريم الشاذلي.
11. نصيحة لمريده عبد الحميد بن علي العوسجي.
12. نصيحة لجماعة من طرابلس.
13. نصيحة لجماعة من أصحابه بالمغرب الأقصى.
14. أربع أحزاب كلها علوم ومعارف وحكم وأدعية وتسابيح تدل على مكانته.

وقد ذكر البرموني: أنه دوّن وحده للأسمر عدد من المؤلفات، منها[130].

1. الوصية الصغرى لمن أراد الدخول في طريقتنا مع الفقراء.
2. ونصيحة المريدين المحبين في سر الأولياء والصالحين.
3. وعقيدة فيما يجب في حق الله عز وجل، وحق رسله عليهم السلام، وحق الملائكة.
4. ومجموع رسائل، ينصح فيها الفقراء ويأمرهم وينهاهم.
5. نحو عشرين ورقة بها أخبار غيبية.

وأن غيره من الإخوان أملى عليهم الشيخ كلاما كثيرا لم يطلع البرموني عليه[131]. وذكر أيضا أن آخر ما أملاه الأسمر كتاب: (العظمة في التحدث بالنعمة) وكذلك (رسالة الأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية)[132] وأنه: كتب بخط يده من التآليف والنصائح ما لا يحصى[133]، وقد اجتمع قبل موت الشيخ أربع مجلدات كل واحد منها في نحو عشرين كراسة، كلها مناقب له، منها ما هو بخطه –البرموني– وبعضها بخط غيره[134]، إلا أن أغلب هذه المؤلفات ضاعت، ولم يبق منها إلا ما تَحَيَّل عليه تلاميذ الشيخ، وأخفوه عن أنظار المعتدين على زاويته[135].

ما ألف عنه

تناول شخصيةَ الأسمر العديدُ من المؤلفات، وأشارت إليه، وتحدثت في مناقبه،

130- ينظر: روضة الأزهار:210.
131- ينظر: المرجع السابق:210.
132- المرجع السابق:177.
133- ينظر: المرجع السابق: 177.
134- ينظر: المرجع السابق: 211.
135- ينظر: المرجع السابق: 177، وفتح العلي الأكبر:167، وأعلام ليبيا:171.

منها القديم، والحديث، فمن المؤلفات القديمة، مثلا[136]:

1. روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب صاحب الطار، للعلامة كريم الدين البرموني، وقد نقّحها قاضي المنستير محمد بن محمد بن مخلوف وسماها: مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ عبد السلام بن سليم.
2. النور النائر للعلامة سالم السنهوري، أفاد محمد الوليد بأنه (مخطوط)، وموضوع دراسة[137].
3. منح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم، لعلي بن عبد الصادق[138].
4. المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، لأحمد النائب.
5. فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم، لعبد السلام بن عثمان التاجوري.
6. مؤلفان: أحدهما كبير، اسمه (الكبريت الأحمر في مناقب الشيخ عبد السلام الأسمر)، والأخر صغير[139]، في ترجمة الأسمر أيضا، لعبد الرحمن المكي.
7. نيل الابتهاج، لأحمد بابا.
8. مجموع الحفيدي[140]، المسمى (البحر الكبير في جمع مناقب صاحب البندير).
9. مجموع عمر بن جحا.
10. مجموع عبد الرحمن الفيتوري.
11. مجموع محمد بن علي الزليطني، سماه (البرهان).
12. مجموع سالم الحامدي.
13. مجموع كراريس، لأحمد بن علي المسلاتي.
14. مجموع كبير، لمحمد بن عطية، سماه بـ(البحر)، وله آخر متوسط.
15. مجموع سعيد التطاواني.
16. مجموع سالم بن طاهر.
17. مجموع معتوق المدني.

136- ينظر: مجلة الثقافة العربية: 38 وما بعدها.

137- ينظر: المرجع السابق: 38.

138- ورد أن الفاسي ذكر هذا التأليف في رحلته، ينظر: عبد الحميد الهرامة، فصول من تاريخ ليبيا الثقافي، أصالة للنشر والتوزيع، طبعة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط:1، 1999م: 190.

139- ذكر محمد الوليد بأنه مخطوط، وتوجد صورة منه بحوزته، ينظر: مجلة الثقافة العربية: 38.

140- لم نعثر له على ترجمة، إلا أن سالم الستهوري أفاد: أن الشيخ الحفيدي من تلاميذ الأسمر المعاصرين له وممن كتبوا في سيرته، ينظر فتح العلي الأكبر: 131.

18. مجموع الشيخ الفاسي.
19. مجموع عبدالله الحطاب.

ومن المؤلفات الحديثة المتناولة بعضا من مآثره:

1. أعلام ليبيا، للشيخ الطاهر الزاوي.
2. فتح العلي الأكبر، للشيخ الطيب المصراتي.
3. على هامش حياة سيدي عبد السلام الأسمر، لإسحاق المليجي.
4. مختصر تاريخ الشيخ عبد السلام الأسمر لسالم بن حمودة.
5. الطبقات العروسية الشاذلية، لأحمد بن حامد.
6. عبد السلام الأسمر آراؤه وأفكاره، لمحمد عز الدين الغرياني.
7. رسالة في فكر عبد السلام الأسمر بعنوان (العارف بالله عبد السلام الأسمر وآراؤه في التصوف)، لأبي السعادات بالأزهر الشريف.
8. رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة

إلى غير ذلك من المؤلفات، والتصانيف، التي كانت برهانا ساطعا على آثاره في ميادين العلم، وساحة التصوف الإسلامي[141]، عبر العصور.

الفصل الرابع: تصوفه

المبحث الأول: طريقته الصوفية

انتسب الأسمر إلى الطريقة العروسية، المنسوبة إلى مؤسسها الشيخ أحمد بن عروس[142]، والمتفرعة عن المدرسة الشاذلية[143]، المنسوبة إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي، التي بنى أُصولَها على قراءة القرآن، وتعلم العلم، فكثُر منتسبوها، وتشعبت منها

141- ينظر: مجلة الثقافة العربية: 39.

142- كان من أشهر المشايخ علما وحالا، دفين المنطقة المشهورة باسمة قرب العاصمة التونسية، ينظر: فتح العلي الأكبر: 206.

143- نسبة إلى الإمام أبي الحسن الشاذلي مغربي الأصل ولد عام 593هـ ثم رحل إلى تونس ورابط بجبل زغوان، وانتقل إلى مغارة بجبل التوبة فأقام بها وشهرت به، توفي عام 656هـ بقرية حميثرا في صعيد مصر، وهو في طريقه إلى الحج فقبر هناك، ينظر: روضة الأزهار: 34 وما بعدها.

طرقٌ عدة من أبرزها: الجزولية[144]، الزروقية[145]، العيساوية[146]، المرسية[147]، العروسية، وغيرها[148].

اعترته حالة كان بسببها يغلب عليه الوجد والهيام في حب الله[149]، فكان يغيب عن وعيه، مما جعله يتحرك حركات لا إرادية، عدها من لم يُدرك العشق والشوق في الله أنها أحوال اختيارية لا معنى لها، فاعترض وأنكر عليه بسببها كثير من العلماء[150]، ظنا منهم أن الحالة اختيارية لا جبرية، وقد اقتنع بعضهم فتراجع عن الإنكار، وترك الاعتراض[151]، ولازمه وأخذ عنه[152].

عرّف التصوف من خلال طريقته بما يدل على صفائه الروحي، وتخليه عن الرذائل، وتحليه بالفضائل، ونهيه عن الأعمال المريبة، فقال: «اعلموا رحمكم الله أن التصوف هو تصفية القلب من الأدناس الذميمة، واجتناب الغيبة والنميمة، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة صفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، والنصح لجميع الأمة، واتباع النبي ﷺ في الشريعة»[153].

144- نسبة إلى العالم محمد الجزولي المغربي الأصل، صاحب دلائل الخيرات، ينظر: ينظر: الشيخ الكامل محمد بن عيسى، لأحمد القطعاني، الناشر: دار الكتاب الليبي حسن الخراز، ش العقيب، بنغازي، ومكتبة جمهورية مصر حمدي عبد الفتاح، ش الباب الأخضر بالحسين، القاهرة، ط:2، 1974: 70.

145- نسبة للشيخ أحمد زروق.

146- نسبة للشيخ محمد بن عيسى دفين مدينة فأس بالمغرب الأقصى.

147- نسبة إلى المرسي أبي العباس، الذي كان أحد تلاميذ الإمام الشاذلي، مقبور بالإسكندرية بمصر.

148- من مثل: القاسمية والمدنية والسلامية والحندوشية والقاوقجية والفيضية والإدريسية والجوهرية والمحمدية والهاشمية ... ينظر: محمد بن علي السنوسي، المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق، وزارة الإعلام والثقافة، ط:1، 1968م: 72، وأبو الوفاء التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط: 3، 1979م: 242.

149- ينظر: أعلام ليبيا: 170.

150- من مثل شيخه عبد الواحد الدوكالي، وسالم الحامدي، وسعيد التطاوني، وسالم بن طاهر، وكريم الدين البرموني. ينظر: روضة الأزهار: 93 وما بعدها.

151- ينظر: أعلام ليبيا: 170.

152- ينظر: روضة الأزهار: 93 وما بعدها.

153- فصول من تاريخ ليبيا الثقافي: 184 وما بعدها.

المبحث الثاني: رحلاته

كان للأسمر رحلات متعددة، وتنقلات كثيرة، أرجع البعض سببها إلى ما لاقاه من اعتراض المعترضين، وإنكار المنكرين حيال كثرة جلسائه من كل ناحية يلقنهم ويربيهم(154).

بعد فراغه من خدمة أستاذه الدوكالي رحل إلى جبل زغوان بتونس، فأقام به –على عادة زوّاره– مدة من الزمن مُختَلِيا متعبدا(155). وبعدها عاد إلى بلده زليطن التي لم يستقر فيها، بسبب إنكار بعض أهلها له، وتعرضه للحسد من قبلهم إلى حد اتهامه بالسحر، إذ تم نفيه منها سبع مرات، ينتقل ويرجع ولم يطب له فيها مقام إلا بعد غياب طويل جاب خلاله الأقاليم. والمناطق(156).

رحل إلى الساحل ومكث فيه مدة مع من صحبه من الفضلاء، ثم توجه إلى طرابلس وأقام بجامع الناقة، وكوّن فيه حلقات دروس الوعظ والإرشاد، ولما شاع خبره، وبعد صيته، حسد من قبل المنكرين عليه، فشكوه إلى والي طرابلس آنذاك، فأمر بإخراجه منها، ومنعه من دخول سائر قراها(157).

فقصد –ومَنْ معه مِنَ الطلبة والمريدين– منطقة غريان، فأقام بجبلها(158)، ثم رحل إلى قلعة سوف الجين ببني وليد فمكث بها سبع سنوات، وتوجه لأداء مناسك الحج عام 957هـ(159)، وبعد عودته انتقل إلى تاورغاء، ومنها إلى مصراته، ومن ثم قفل عائدا إلى زليطن مسقط رأسه.

154- ينظر: روضة الأزهار: 100 وما بعدها.

155- ينظر: المرجع السابق: 100.

156- ينظر: المرجع السابق: 100 وما بعدها.

157- يذكر البرموني أنه كان بصحبة الأسمر يوم خروجه من طرابلس، ينظر: روضة الأزهار: 104.

158- كانت إقامته في كهف يسمى بتكيرة، ينظر: المرجع السابق:108.

159- جاء عن البرموني: أن محمد بن عبد النبي الجبالي أحد تلاميذ الأسمر، التقى به عند ذهابه إلى الحج عام 957هـ، وخدمه مدة مجاورته بمكة إلى أن رجع إلى طرابلس، كما ورد عنه أن تلميذه عبد الحميد بن علي العوسجي صحب الأسمر بعد طلعته للحج عام 958هـ وفي فتح العلي الأكبر: أن الأسمر بنى زاويته في عام 971هـ، وهذا ما يبعث على الترجيح أن الأسمر انطلقت رحلته إلى الحجاز من سوف الجين، ينظر تراجمهم في مبحث تلاميذه من هذا البحث، وفتح العلي الأكبر:41.

المبحث الثالث: آثاره الصوفية وتأسيسه للزاوية

ولمّا استقر بزليطن، وطاب له المقام فيها، أنشأ زاويته الأسمرية عام إحدى وسبعين وتسعمائة للهجرة، تصدر فيها حلقات العلم مع طلبته ومريديه، فكان يقرئهم القرآن، ويعلمهم التوحيد، والفقه، والحِكَم، والنحو، والمنطق، والتصوف، وغيرها من العلوم[160].

تخرج فيها على يديه العديد من طلبة القرآن، وسائر العلوم، فكانوا في زمانهم رواد خير وصلاح، انتفع الناس بهم وبعلومهم، وهم كثر منتشرون على طول البلاد شرقاً وغربا[161].

ولا زالت زاويته شامخة تَعُج بطلبة العلم الذين يقصدونها من كل حدْب وصوب، تؤدي دورها المتميز في تحفيظ القرآن وتعليم العلوم، من وقته إلى يومنا هذا، ولم يسجل عليها التاريخ قصوراً في ذلك، وإن ما نلمسه ونلاحظه من خلال معايشتنا للواقع أنه ما من قلعة فقهية، وعلمية، في بلادنا إلا وبها من دَرَسَ في الزاوية الأسمرية، أو تتلمذ على من دَرَس فيها.

أسس بها طريقة صوفية عرفت في الأوساط الاجتماعية بالعروسية[162] نسبة لأحمد بن عروس[163]، ذات المشرب الشاذلي كما سبقت الإشارة إليها[164]، وبناها على ما يُقرِّب إلى الله تعالى، من تلاوة القرآن، وترديد الأذكار والتسابيح، وقراءة الأوراد، والأحزاب[165]، فرادى وجماعات، وكانت وسيلة لنشر الطريقة الزروقية[166].

وقد أجمع القوم من أهل المكانة العلمية في المجال الصوفي أن العروسية لب

160- ينظر: أعلام ليبيا:171.

161- من مثل عمر بن جحا ومحمد الجبالي، وصالح الغيثي، وأحمد السقفي الشهير بالترجمان، وغيرهم كثير، ينظر تراجمهم في مبحث تلاميذه من هذا البحث.

162- شهرت أيضا بالسُّلامية نسبة للشيخ عبد السلام الأسمر الذي نحت من اسمه (السلامية).

163- ينظر: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني: 86.

164- ينظر: ص 26 من هذا البحث.

165- ينظر: محمد بن علي السنوسي، المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق، وزارة الإعلام والثقافة، ط:1، 1968م، 72.

166- ينظر: مجلة الثقافة العربية: 42.

الطريقة الشاذلية[167]، لما تميزت به من البساطة والسهولة لمريديها، حتى إنها عرفت أيضا بطريقة العوام، وصُنفت لدى أهل المكانة العلمية، بأنها من أنجع الطرق وأقومها[168].

أثنى عليها الشيخ الدوكالي، فقال: «طريقتنا العروسية أقرب إلى الله ... وهي مأخوذه عن رسول الله ﷺ بسلسلة ممتدة»[169]، ولعل تخصيص الطريقة بأنها أقرب الطرق إلى الله جاء من صحة سندها. وتحدث في شأنها ابن مخلوف، فقال: «وهي طريق قويم وصراط مستقيم جامعة بين الشريعة والحقيقة»[170].

كما ذكرت بعض المصادر أن الأسمر له نظم شائع، وموشحات ظريفة، وله عدة نصائح شرعية، ووصايا لأصحابه، وله مقطعات، منها ما هو على موازين العروض العربية المشهورة عند النحاة، ومنها ما كان على موازين ابن الفارض، والتُّشْتَري، والشيخ يوسف الجعراني[171]، وغيره[172].

ومن آثاره الصوفية ما نقل عن الحفيدي[173] من أن للأسمر مقطعات كثيرة على موازين العروض العربية تبلغ سبعمائة مقطَّعة، وعلى لغة العرب المنحرفة[174] أربعمائة مقطعة، وعلى موازين الحسن التشتري ثمانمائة مقطَّعة، وعلى يوسف الجعراني خمسمائة قصيدة، وأما التي على عُرْف البلد الملحونة -العامية- فلا يحصيها إلا الله عز وجل[175].

المبحث الرابع: من نصائحه ووصاياه

إن جوانب الأسمر الروحية، ومنزلته في تقوى الله تعالى، والخوف منه، والوقوف

167- ينظر: روضة الأزهار: 73.
168- ينظر: المرجع السابق: 73.
169- المرجع السابق: 73.
170- المرجع السابق: 73.
171- هو يوسف بن علي الجعراني المسلاتي، من العلماء العاملين، له شرح القرطبية، والأجرومية، وله نظم بديع فيها، ينظر: أعلام ليبيا: 363 وما بعدها.
172- ينظر: فتح العلي الأكبر: 130.
173- ينظر: المرجع السابق: 130 وما بعدها.
174- لعل المقصود الموشحات.
175- ينظر: فتح العلي الأكبر: 130.

عند حدوده، وأوامره، ونواهيه، كانت مؤثرة في مجاله التربوي والعلمي لإخوانه ومريديه وعامة المسلمين، فكان إلى جانب ما يكنه لهم من الحب والخير، ينصح ويرشد، ويوجه إلى صالح الأعمال، ويحرص على تربية مريديه، يتبين ذلك من وصاياه، ونصائحه المتعددة لإخوانه، يقول البرموني: « اعلمْ أن نصائح الشيخ كثيرة لا يمكن حصرها »[176] فمن ذلك:

1. التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية.
2. نصيحة المريدين في الأولياء الصالحين: وهي النصيحة الكبرى.
3. نصائح التقريب في الفقراء والنقيب: وتشتمل على أربع نصائح.
4. مجموعة رسائل أخر[177].

وقد جاءت هذه النصائح في عبارات تتميز ببسر إلقائها، وسهولة فهمها، باتباع اللغة الميسرة، واللهجة المفهومة، والألفاظ المتداولة التي يتشوق إليها السامع، والقارئ[178].

ويحسن هنا -للتوضيح- إيراد نماذج من وصاياه ونصائحه، فمن ذلك مثلا قوله من وصيته الصغرى: « إلى إخواننا الفقراء[179] الأحباب في الله عليكم بالتوبة عند كل ذنب ومعصية، صغيرة أو كبيرة، واغتنموا التوبة قبل الموت، وشروط التوبة الندم على ما فات، وجزم النية أن لا تعود إلى الذنب، وترك المعصية لمن حدثته نفسه بها ... ورد المظالم إلى أهلها ... فلا تعتقدوا إلا ما يوافق الشرع العزيز، وترك أيْمَان الفسّاق، وسبِّ المسلم وتخويفه، وإهانته لغير وجه شرعي ... والاشتغال بذكر الله تعالى على الدوام من غير فتور، ولا تراخ، ولا تكاسل، مبدوءا بالصلاة على النبي ﷺ، واحفظوا أنفسكم من الظلم، والخيانة، والأفعال والأقوال الكفرية[180] والعياذ بالله، وجحد الأمانة، والبغض، والشك، في قدرة الله، والمخالفة لما أمر الله به، والرياء، والتفاخر، والبطر، واتباع الهوى، والزور، والبهتان، والغش، وخديعة المسلم، والتفريط في الشريعة، والحرص على الدنيا ... وإياكم واتباع الشهوة المهلكة، والشح المطاع، والهوى المتبع، والرغبة في الباطل»، والزيغ عن الحق والصواب»، والقساوة في القلب واللسان، والبخل، والأمل

176- روضة الأزهار: 177.

177- ينظر: المرجع السابق: 177.

178- ينظر: فتح العلي الأكبر: 137 وما بعدها.

179- مفردها الفقير، وهو مصطلح صوفي يطلق على مريد الطريقة الصوفية.

180- أي التي تكفر صاحبها.

الكـاذب، وإيـاكم والطمع ... وإياكم والكسل عن الصلوات المفروضة في أول وقتها في الجماعـة، والنوافل، والذكر والأوراد، وجميع أفعال الخير، وإياكم والزندقة، وهي تزويق الظاهـر وفـساد الـباطن فيما بين العبد وربه، والحسد وإياكم والتجبر، والعُجْب، والكبر، والغل، والغفلة، والمنكر،والحقد ... وإياكم واتباع الشيطان في كل ما يأمر به ...»[181]

ومنها أيضا: «فعليكم باتباع السنة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وعليكم بمعرفة فرائض الطهارة من الجنابة، والوضوء، والتيمم، والصيام والزكاة، والحج، وجمـيع الواجـبات لأن الفـروض لا تـصح إلا بمعـرفة واجـباتها ومـبطلاتها، وعلـيكم بالتواضـع لجمـيع خلـق الله بَـرّا وفاجـرا، وعلـيكم بـتعلم الآداب في فعـل مـن الأفعـال والأقـوال، وعلـيكم بالنـصيحة لكـل مـسلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وليكن بلين ورفق، وعليكم بالحياء والمحبة القوية ... ولا تؤثروا محبةً فوق محبة الله، وأما النبي فـلا تحـبوا أحـدا مـن الخلـق مثل محبته ... واعلموا أن محبته ﷺ لا تصح إلا باتباع سـنته ... وعلـيكم بالـتوكل على الله في جميع الأمور وعليكم بالوفاء لكل من له عليكم حق فأوفوا به ... وعليكم بطلب الحلال وترك الحرام والافتقار إلى الله تعالى ... وعليكم بالبكاء والتيقظ للعيوب النفسانية فحاسبوا أنفسكم ... وعليكم بترك الناس جانبا، والعزلة عـنهم إلا عـند الـضرورة فـلا بـد مـن الصمت عند الخوض في الكلام معهم إلا لحاجة ضرورية»[182].

وورد أنه كتب إلى أصحابه بتمبكتو بمالي نصيحة، جاء فيها: «الحمد لله والصلاة والـسلام علـى سـيدنا محمـد وآلـه وأصـحابه وسـلم، اعلمـوا رحمكم الله أن أحق شيء للـتقديم في النـصيحة الوصية بتقوى الله واتباع سنة رسول الله ﷺ، فأوصيكم أيها الفقراء المنتـسبين إلينـا ... فـأول ما يجب عليكم تصحيح إيمانكم ثم معرفة ما يصلح لكم من فـرض العين كالطهارة والوضوء والصلاة ونحو ذلك[183]، تعلموا النحو فإنه زين الكلام وجمـال المـنطق وقـوام اللـسان، وهـو علـم مـن أشرف العلوم، يزيد المرء بعمله فهما، وفـضلا، ويكـبره عـند العلمـاء، ولا يـتم اللفـظ أو الشعر إلا به، ففي الحديث الشريف: أعـربوا الكـلام كـي تعربوا القرآن ... ولا ينبغي للنحوي أن يرى نفسه فوق غيره تكبرا،

181- روضة الأزهار:179.

182- المرجع السابق:181وما بعدها.

183- فتح العلي الأكبر: 157.

ولا يحل له أن يستهزئْ بكلام الغير ... ولا ينبغي التعمق في المنطق، وقد حرَّمه الشيخ النووي وجماعته، والمشهور جوازه لمن كمل عقله، وذلك مذهب الجمهور، وقال شيخنا: « عِلْم المنطق علم شريف يحتاج إليه في كل شيء، فمن لم يتوغل في النحو والمنطق لا ثقة لي بعلمه، لأن من لا يذكرها لا يجوز له القدوم على التصانيف وقراءة الأحاديث والتفاسير »[184]، وقد ورد الكلام في فضل العربية والحث عليه، قال ﷺ: « رحم الله امرءاً أصلح من لسانه »[185]، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: « تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة »[186]، وقال شعبة: « إذا كان المحدث لا يعرف النحو فهو كالحمار تكون على رأسه مخلاة فيها شعير »[187]، وقال الشافعي رحمه الله: « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس »[188] ... وقد اتفق العلماء على أن النحو محتاج إليه كل فن من فنون العلم، أما التفسير فلا يجوز لأحد أن يتكلم في كتاب الله تعالى حتى يكون ملما بالنحو فإنه عربي ولا تعرف مقاصده إلا بمعرفة قواعد العربية.

وأوصيكم بالحرص على طلب العلم النافع قراءة ومطالعة ومذاكرة لأن علم الدين أفضل ما يكتسبه العبد من المناقب السنية ففي الحديث: « قليل العمل مع العلم كثير، وكثير العمل مع الجهل قليل بحسب التوبة والقبول »[189]

وأوصيكم بحفظ القرآن والإكثار من تلاوته إن أمكنكم حفظه، لأنه من السنة الشريفة، ولتكن قراءتكم له مع التدبير والترتيب والتفهم لمعانيه، ومن السنة أن يحفظه العبد بحيث يقرؤه عن ظهر قلبه بدون النظر إلى المصحف، أي يأخذه عن شيخ ماهر به، فإذا تمهر فيه إلى أن بلغ الغاية القصوى يقرؤه كيف شاء، خلافا لمن قال: قراءة القرآن في النسخة أكثر ثوابا ممن يقرؤه بدون النظر إليه، وفي الحديث: « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة »[190]

184- فتح العلي الأكبر: 158.

185- المرجع السابق: الصفحة نفسها.

186- المرجع السابق: الصفحة نفسها.

187- المرجع السابق: الصفحة نفسها.

188- المرجع السابق: الصفحة نفسها.

189- المرجع السابق: 159.

190- المرجع السابق: 160.

وتناول شرح المهارة، فقال: المراد بالمهارة في الحديث جودة اللفظ، وإخراج كل حرف من مخرجه، وجودة الحفظ وهو المناسب هاهنا[191].

وأفاض الشيخ الأسمر في شرح الحديث، وأطال في الحث على تلاوة القرآن والاعتناء به، إلى أن قال: « إخواني اختاروا لأنفسكم وأولادكم الزوجات الطيبات ذوات الحسب والنسب ... وإياكم وخضراء الدمن[192] ... إخواني، وإياكم واتباع علم الكمياء[193] والكنوز، والجداول، والتبريج، والفال، وتقليب القلوب »[194].

وقال في نصيحته لأتباعه بتونس: « وعليكم بالإياس مما في أيدي الناس، وبقطع الطمع فيه والاستشراف إلى ما في أيديهم ... وعليكم بالتوكل على الله والثقة بضمانه والطمأنينة بكفالته وكفايته، والاستعانة به في كل أمر والاعتماد عليه في كل حاجة ... وعليكم بالملازمة لجميع أورادكم ... وواظبوا على أذكار الصباح والمساء ... وعليكم بسلامة الصدور، وسخاوة النفوس، والرحمة بكل مسلم، وحسن المصاحبة والمعاشرة ... وعليكم بالتواضع ... وقد أطال في نصيحته »[195].

وما شابه ذلك من النصائح، والإرشادات، المتضمنة أفكارا وآراء، تستحق منا الدراسة والتأمل، لمعرفة المزيد عن طريقته، ومدى فهمه للتصوف الصحيح الخالي من البدع ومما علق به من شوائب.

ويحسن هنا أن نقف عند نماذج من شعره الفصيح للتدليل على فصاحته وشاعريته، ومن ذلك قوله في مدح الرسول ﷺ:

يارب صلِّ على محمد وعلى ... آله الفضلاء وأصحابه الكُمَّل
هو النبي الذي ما مثله أحدٌ ... وهو المبرَّأ من نقص ومن زلل
وهو الشفيع غدا من حر نار لظى ... والناس كلهم منها على وجل
صلى عليه الإله الفرض ما طلعت ... شمس وما ناح قُمَارِيّ على طلل[196]

191- ينظر: فتح العلي الأكبر:160.
192- ينظر: المرجع السابق: الصفحة نفسها.
193- المقصود الكيمياء المستعملة في الشعوذة والسحر، وليس علم الكيمياء بمفهومه الحديث.
194- ينظر: فتح العلي الأكبر:160 وما بعدها.
195- ينظر: المرجع السابق: 163 وما بعدها.
196- المرجع السابق: 130.

معاني الأبيات واضحة جلية، في أسلوب سلس فصيح، خالٍ من التعقيد والتنافر، وبعيد عن الألفاظ الوحشية، والعامية، والثقيلة على السمع.

ومنه قوله أيضا في التذلل والخضوع لله جل جلاله:

وقفتُ بالذُّل في أبواب عزكم ... مُسْتَشْفعا لذنوبي عندكمْ بكُمُ
أعفِّر الخدَّ ذُلاّ في التراب عسى ... أن تقبلوني وترضوا عن عُبَيدكمِ
فإن رضيتم فياسعدي وياشرفي ... وإن أَبَيْتُم فمن أرجوه غيركمُ[197]

والأبيات هنا بادٍ عليها التذلل والخضوع، فمعانيها في مقام استنزال الرحمة والمغفرة، من الله عز وجل، وقد عبر عن ذلك بألفاظ: التَّعْفير في التراب، والذل، وعسى الدالة على الرجاء، والعُبيد الدالة على كمال الطاعة والخضوع، والتعبير بياسعدي وياشرفي المظهر لكمال السعادة في حالة الرضا، والاستفهام المفهم لمعنى الطمع في القبول والعفو عن الذنوب في البيت الأخير.

وقوله لمَّا أخرجه الحاكم التركي من طرابلس:

إذا ظَلَمَ الأميرُ وكاتباه ... وعمَّ الحَسَد في كل البلاد
وقاضي الحكمِ تاهَ في هواه ... وأظهر بالفجور وبالعناد
فويل ثم ويل ثم ويل ... لكل فقير من قاضي البلاد
أقول أقول يا وحشتاه ... فلا يخلو الفقير من النكاد
من البلقاء[199] يا أُخَيَّ خرجنا ... وكل مقيم يرحل باعتياد[198]

والمشهد هنا مشهد ظلم وهَمّ ونكد، فالرجلُ قد ظُلِم، وأُخرِج من طرابلس تعسّفا، واستجابة لحقد الحاقدين، وحسد الحاسدين، يعبر عن هذه المعاني ألفاظ: الظلم، الحسد، تاه في هواه، الفجور، العناد، الويل المكرر ثلاث مرات، الوحشة، الرحيل، فكل هذا الحشد من الألفاظ الدالة، تصور المشهد في أبشع صورة، وتجسم ما لاقاه الشيخ من العَنَت، والإكراه على مغادرة طرابلس، والتعسف في المعاملة ممن يُظَن أنهم أهل العدل والصلاح، وإذا جار أمثال هؤلاء وتعسفوا فلا ترجو الخير ممن سواهم، وعند ذاك يعمّ الفساد، ويُسَاكِن النفوسَ الهمُّ والحزنُ.

197- فتح العلي: 132.

198- المرجع السابق: 104.

199- البلقاء: اسم من أسماء طرابلس القديمة، ينظر: روضة الأزهار: 73.

وقـد يلاحَـظ هـنا بعض الخلل في الوزن كما في البيت الأول، والبيت الثالث، أو استعمال ألفاظ عامية مثل: وحشتاه، النّكاد، وأخيَّ، ولكن مثل هذه المآخذ لا تُنقِص من قيمة النص، ولا تُبْعِده عن الفصحى.

وهكـذا يبدو الشيخ من خلال هذه النماذج شاعرا فصيحا، مبدعا، ذو ثقافة لغوية واسـعة، تَظهَـر واضـحة مـن خـلال ألفاظـه المختارة المنتقاة، وأساليبه السلسة المدبَّجة، وصـوره المعبرة عن المواقف المختلفة، والمجسِّمة للمشاهد المنوعة، ولا يعورها ما قد يظهر فيها من آن إلى آخر من ألفاظ عامية، أو كسر بسيط في الوزن، وما شابه ذلك.

الخاتمة

وفي خاتمـة المطـاف مع هذا البحث يمكن إجمال النتائج التي تَمَّ التوصل إليها مختصرة في النقاط التالية:

1. الشيخ الأسمر شخصية متميزة فكريا وأخلاقيا.
2. للتنشئة الروحية التي حظي بها أثر كبير في اتجاهه الفكري.
3. مر الشيخ في شبابه بكثير من الصعوبات والعقبات التي ولدَّت له بعض العداوات.
4. الشيخ الأسمر شاعر وأديب مبرز.
5. لم يستوعب كثير من الناس منهجه الصوفي مما عرضه للنقد والتهكم أحيانا.
6. كثرت أسفار الشيخ ورحلاته في مرحلة تكونه الأولى.
7. كـثير ممـن ناصـبوه العـداء رجعـوا إلـيه معتذرين تائبين لمَّا فهموا أفكاره ومنهجه الصوفي.
8. يُعد الشيخ من أكابر علماء عصره وأكثرهم ورعا وتقوى وخوفا من الله.
9. زاوج الشيخ بين العامية والفصحى وفي كلٍّ أبدع وأفاد.
10. نال الشيخ شهرة واسعة، وسمعة طيبة في محيط العالم العربي كله.

التوصيات

1. نوصـي طلاب الدراسات العليا بالاتجاه إلى تراث الشيخ الثقافي والديني والصوفي ففيه ما يصلح لإقامة دراسات أكاديمية منوعة عليه.
2. كما نوصي بمتابعة ما كتب عنه ومحاولة تنقيته مما علق به من الشوائب، ولا سيما المـبالغات، والتـزيّد في نـتاجه، ونـسبة مـا لـم يقلـه إليه، وذلك أيضا يصلح لإقامة

دراسات وأبحاث حوله.

3. كثير من نتاجه الفكري والأدبي مفقود ونحن نوصي بمحاولة التنقيب عنه في مظانه عند الخاصة والعامة داخل ليبيا أيضا.

والله الموفق